# الأبعاد السياسية–الاجتماعية لمسيحية قسطنطين الأكبر: خلفيات مجمع نيقية

**ش. د. إيهاب الخراط**

مع كل الإضافات التي أضافها تنصُّر قسطنطين الأول وأهمها نهاية الاضطهاد الوثني للمسيحيين. إلا أن التبعات الروحية لمأسسة المسيحية لم تكن كلها إيجابية. ولا ننسى أن السعي لتوحيد وتقنين العقيدة والكنيسة أدى لاضطهاد المسيحيين للمسيحيين. لكن التبعات السياسية الاجتماعية لصعود تأثير أساقفة المسيحية خاصةً أسقف روما (بابا روما فيما بعد)، واعتبار المسيحية أداة مهمة لتوحيد الإمبراطورية كانت كثيرة وفادحة. لقد تحالفت المسيحية مع السلطة السياسية والطبقات الحاكمة، فلم ينتهِ تمامًا دورها التقدمي مع الطبقات الكادحة والمطحونة، لكنه تراجع تراجعًا كبيرًا لصالح دور المؤسسة الدينية المتحالف بطبيعتها مع المؤسسات الحاكمة تأسيسًا لتبادل المنفعة بينهما.

الأب الروحي لرائد حركة الحقوق المدنية في أمريكا د. ق مارتن لوثر هو القس هوارد ثورمان. قال ثورمان: "يسوع أعلن الأخبار السارة أن كلاب المطاردة الثلاثة الخارجة من الجحيم: الخوف والنفاق والكراهية، الكلاب التي تتعقب مسيرة المحرومين في كل جيل، ليس لها سلطان على الذين يقبلون أخباره المفرحة هذه. في مواجهة عدوانية العالم اليوناني– الروماني صار يسوع لنفسه ولشعبه كلمة وعمل الفداء لكل المنبوذين في كل جيل وعصر. المسيحية التي وُلِدت في ذهن هذا المعلم والمفكر اليهودي تتجلى كتكنيك يتيح للمقموعين البقاء والحياة في مواجهة القمع، وهذا التكنيك هو واقع أولي خام. لقد صارت المسيحية في سنوات لاحقة ديانة للسادة ولذوي السلطة، لكن هذا لا ينبغي أن يجعلنا نظن أنها كانت كذلك في زمن يسوع أو في حياته: "فِيهِ

كَانَتِ الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ"، ولا يزال المقهورون يستجمعون شجاعة طازجة كلما تجلت هذه الحقيقة الأولية بصورتها الخام أمامهم".

حقًّا يمكن تلخيص التبعات السياسية الاجتماعية لتنصر قسطنطين في هذه العبارة الخارقة والمأساوية: "صارت المسيحية... ديانة للسادة ولذوي السلطة".

## الوظيفة السياسية الاجتماعية الأساسية للدين

يحب معظم المسيحيين أن يعتبروا المسيحية "حياة" أو "علاقة شخصية مع الله". لكن الواقع أنه إن طبقنا العناصر الأربعة لأي ديانة وجدناها تنطبق على المسيحية المؤسسة كما نعرفها اليوم. الدين أي دين فيه خبرة "روحية" أي اختبار لما هو ماورائي أو إحساس بما هو إلهي. يؤثر على الاختيارات الأخلاقية ويشكِّلها ويضم العقل والإرادة في خبرة واحدة، ثم الدين يضم مجموعة من المبادئ الأخلاقية، وثالثًا يتضمن الدين دائمًا تفسيرًا لنشأة الكون ونهايته وشرح للكيفية التي يدار بها، ورابعًا وأخيرًا يعبِّر الدين عن عنصر تتوحد به وتلتف حوله الجماعات بما يمكنها من العمل المشترك.

يشكل الدين "قصَّة" أو "سردية" تجمع مجموعة من الناس (تضم آلاف أو ملايين البشر أو مئات الملايين أو آلاف الملايين أحيانًا) توحِّدهم قصة واحدة. ومسألة "الوحدة" هذه ضرورية لبقاء الجنس البشري وتطوره. يقول عالم الأنثروبولوجيا الشهير والكاتب ذائع الصيت يوفال نواه هراري إن الميزة الأساسية للبشر ليست مجرد حجم المخ، بل في قدرة هذا المخ على العثور على قصة توحد الجماعة القبيلة ويستطيعون بفضلها أن يتحركوا كجماعة واحدة. من دون هذه "القصة" حول الطوطم أو الوثن البدائي لم يكن من الممكن أن ينجح

استخدام البشر أدوات بدائية لصيد حيوانات أكبر منهم كثيرًا، كما حدث مثلًا لتحركهم المتناسق كجماعة واحدة. هذه الجماعات فسرت دهشتها أمام الكون بطواطم (جمع طوطم) وأوثان وآلهة متعددة ونسبوا الألوهية لقوى الطبيعة والحيوانات أو نباتات أو بشر. وغالبًا كانت هذه القصة/ الأسطورة الديانة تضع الجماعة في مكانة خاصة في ثقافة هذه الجماعة، مكانة تتميز بها هذه الجماعة بالذات عن غيرها.

حتى عصر قسطنطين كانت الديانات الوثنية التي تعطي مكانة خاصة لقيصر أو للإمبراطور (وتؤلهه أحيانًا) قادرة على توحيد الإمبراطورية، لكن بعد الجائحتين الرهيبتين اللتين اجتاحتا الإمبراطورية الرومانية وحصدتا ملايين النفوس، ظهر عجز هذه الديانات في مواجهة الأوبئة والكوارث الطبيعية. المسيحيون وحدهم لإيمانهم بالحياة الأبدية وشدة محبتهم بعضهم لبعض وللوثنيين، قاموا بخدمة المرضى، حتى لو أصيبوا بالمرض وماتوا، في حين كان الوثنيون يهجرون أقاربهم وأسرهم للنجاة بأنفسهم؛ فمات عددٌ من المسحيين لكن نجا من الموت أعداد كبيرة من المرضى بسبب عناية أقاربهم المسيحيين بهم، واكتسب كثير من المسيحيين الذين خدموا غيرهم مناعةً حمتهم من الأوبئة، فتضاعفت أعداد المسيحيين وتقلص عدد الوثنيين بعد أول وباء في القرن الثاني الميلادي، وتكرر هذا بعد ثاني وباء في القرن الثالث. يقدر جون ستارك عالم الاجتماع التاريخي أن عند اعتناق قسطنطين للمسيحية كان عدد المسيحيين يناهز 40% من تعداد الإمبراطورية. وهذه الأقلية الصاعدة حثيثًا نحو أن تكون أغلبية كانت مُفعَمَةً بالحيوية والقوة الروحية والمعنوية وصمدت أمام موجات متتالية من الاضطهاد، بل خرجت أكبر عددًا وأقوى صلابة بعد كل اضطهاد.

أدرك قسطنطين –بصفته سياسيًّا محنكًا– أن مستقبل وتماسك امبراطوريته مرهون بتبنِّي سرديةٍ دينيةٍ أكثر صلابة وحيوية من السردية الوثنية، إضافةً طبعًا لتأثير زوجته وتأثير الحلم –الرؤيا التي اختبرها، لا شك عندي أن الاختيار الأصوب سياسيًّا للإمبراطور كان الانضمام لتيار صاعد بلا هوادة، وواعد، ويبدو أنه كان

في كل الأحوال سيشكل الأغلبية بعد فترة تطول أو تقصر. إعلان الإمبراطور والأسرة الحاكمة والحاشية والوزراء وذوي السلطة والمال عمومًا إيمانهم بالمسيحية ومعموديتهم، أدى ولا شك إلى انضمام جموع غفيرة للديانة الصاعدة تقربًا وزلفى للحكام.

لم يضطهد قسطنطين نفسه الوثنيين اضطهادًا منظَّمًا، لكن انتقام "المسيحيين" بعده من مضطهديهم تبدَّى مثلًا في هدم معبد سيرابيس بالإسكندرية وذبح كهنة وثن المدينة عن بكرة أبيهم. في كل الأحوال انضمت جموع للكنيسة، لاعن إيمان يتحدى الصعاب كالقرون الأربعة الأولى، بل لأن هذا صار السبيل الأيسر للتقدم في الحياة العملية في بعض الأحوال وزلفى ونفاقًا للحكام في أحوال أخرى.

## مأسسة المسيحية: نعمة أم نقمة؟

لم يعد الأساقفة قادة روحيين واقعين تحت الاضطهاد أو التمييز أو في أفضل الأحوال قادةً لمجموعة غير معترف بها رسميًّا خافتة الصوت، بل صاروا أصدقاء وسند الحكام ومستشاريهم وموضع ثقتهم، بل العامود الفقري لوحدة الإمبراطورية كلها. لذا كان لزامًا أن يدعو قسطنطين لمجمع نيقية لتعزيز وحدة الديانة عقائديًّا ومن ثم توطيد أواصر وحدة سلطته السياسية.

خرج مجمع نيقية بقانون إيمان هو خلاصة روحانية هذا الجيل من الأساقفة الذين لم تفسدهم السلطة بعد، نحت لاهوتي بديع ودقيق. لكن أندرو ميلر مؤرخ طائفة الإخوة ينتقد ما حدث بعدها، ولا يخلو انتقاده من وجاهة وصدق، يقول إن مسيحية القرون الأربعة الأولى –وآباء ما قبل نيقية– أكثر أصالةً وروحانيةً مما بعد نيقية. وينسب –كما ينسب كثيرون– التدهور الروحي للكنيسة لتدخل قسطنطين السياسي فيها. ولا شك أن انشقاق روما/الإسكندرية في مجمعي أفسس وخلقيدونية كان له أبعاد سياسية، بل هو في ظني شكل من أشكال

الرفض الوطني المصري لسلطان روما. باعتبار أن الإسكندرية مع كونها مركز الثقافة والحضارة واللاهوت والقادة الروحيين العظماء، كانت ترزح تحت المستعمر الروماني ثم البيزنطي. لعل الانشقاق كان تعبيرًا عن الاستياء الوطني تجاه المستعمر الأجنبي أكثر من كونه خلافًا عقائديًّا.

## ملوك وطغاة مسيحيون وصعود المسيحية بالسيف

الإمبراطور ثيودوسيوس بعد توليه مباشرة في ٣٨٠م أصدر قرارًا بأن على كل رعاياه أن يتبنوا الإيمان الكاثوليكي وكل فريق يخالف هذا يكون مهرطقًا، مطلقًا شرارة الاضطهاد ضد الكنائس الأرثوذكسية. ثم أصدر قرارًا بمصادرة كل أملاك المعابد الوثنية وإلغاء كل امتيازات وحصانات الكهنة الوثنيين ممهدًا لمذابح ضدهم وانتهاء الوثنية بالقوة. وكانت هذه خطوة نحو فرض أباطرة مثل شارلمان الفرنسي للمسيحية بقوة السيف في البلاد الإسكندنافية وبطرس الأول في روسيا وأوكرانيا، وبعدها طبعًا فرض الأسبان والبرتغاليون المسيحية بالقوة على سكان أمريكا الجنوبية واستند البروتستانت في أمريكا الشمالية لوسائل قسرية لتنصير السكان الأصليين هناك. شارلمان هو الذي أضاف لقب "المقدسة" على الإمبراطورية الرومانية الموحدة التي أحياها قسطنطين. وكان رائدًا في الأعمال الوحشية التي فرض بها نفوذ هذه "الإمبراطورية المقدسة" على كل أوروبا، فاتحًا الباب لمزيد من الطغيان السياسي واستبداد طبقة الإكليروس المتحالفين مع الإقطاعيين. كل هذا كان مفتتحه ومطلق شرارته الأولى كان استخدام قسطنطين للمسيحية كأداة توحيد لإمبراطوريته.

## التبعات السياسية الاجتماعية

- **إغلاق الكتاب المقدس في سبيل "الوحدة"**

هذا السعي المحموم "للوحدة السياسية" –أي سيادة الإمبراطور على أطراف مُلكِه المتسعة– كان لا بدَّ أن يصحبه سعيٌ محمومٌ للقضاء على "الهراطقة"، وتمثَّلت أبشع تداعيات هذا السعي في قرار الكنيسة الكاثوليكية بتحريم قراءة الكتاب المقدس على الشعب من دون إشراف كاهن؛ أي أن الكهنة فقط هم المسموح لهم بقراءة الكتاب وتفسيره.

مصادرة الحرية الدينية بهذا الشكل كان لا بد أن يستتبعها بالضرورة مصادرة الإبداع الفني والأدبي والعلمي وتحجيم الحراك الطبقي: تدهور العلوم والفنون وانتشار الخرافات والشعوذة كان مصحوبًا باستحالة خروج الطبقات الفقيرة من فقرها. كانت جذور هذه المأساة أيضًا في عصر قسطنطين؛ فقد انتصر قسطنطين على خصمه ماكسنتيوس إمبراطور الغرب ليوحد الإمبراطورية الرومانية كلها تحت إمرته، لكن في حركة سياسية ذكية خضع قسطنطين روحيًّا لأسقف روما، التي كانت مقر انطلاق مكسنتيوس خصم قسطنطين المهزوم. ليوحد شعب الإمبراطورية تحت رايةٍ دينيةٍ/سياسيةٍ واحدة. باختصار إغلاق الكتاب المقدس أدى إلى تدهور الحياة الروحية وطغيان الباباوات وفضائح غير مسبوقةٍ بين قيادات الكنيسة وانتهاكٍ فظيعٍ لحقوق الإنسان وتدهورٍ في العلوم والفنون واستبدادٍ سياسيٍّ وقمعٍ غير مسبوق– ما يُسمَّى بعصور الظلام.

ولا يخفى على أحدٍ أن هذا أطلق شرارة إصلاح القرن السادس عشر، ثم شرارة التنوير بعدها، والذي كانت قمته الثورة الفرنسية التي أرست مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة، التي اعتبرت الكرادلة جزءًا من النظام القمعي للإقطاع الفرنسي، وأعدمت كثيرًا منهم كما أعدمت الأرستقراطيين الطغاة.

- **اختلاط المسيحية بالسلطة السياسية من القسطنطينية فصاعدًا**

مثال آخر لهذا الخلط أن قياصرة روسيا اعتبروا موسكو "القسطنطينية الثانية" أو "روما الثالثة"؛ أي نصَّبوا أنفسهم حماةً للإيمان المسيحي. وطبعًا لا يزال لقب ملك بريطانيا "المدافع عن الإيمان"، و"رأس الكنيسة"، لكن ثورة كروميل (المشيخي) على طغيان الملك، حدَّت من السلطة الفعلية للملك وأعطت سلطة أكبر للبرلمان. ما جنَّب بريطانيا ما حدث في الثورة الفرنسية وفي الكنيسة هناك من مواجهة ثورةٍ شعبيةٍ تحت رايات الإلحاد أو العلمانية الراديكالية، وهو ما تكرر في حالة الثورة البلشفية في روسيا على "القسطنطينية الثانية".

الزواج "غير المقدس" بين الملوك والأباطرة وبين المسيحية كان وبالًا على التقدم السياسي، مثلما كان دائمًا مصدرًا للتدهور الروحي وتوريط الكنيسة في "خطايا" سياسيةٍ فادحة. وجذور كل هذا يسهل تتبعها لفرحة آبائنا المفرطة برضا الامبراطور قسطنطين عنهم وتحالفهم معه. انعقد مجمع نيقية بدعوة من الإمبراطور قسطنطين الأكبر، "لتوحيد" المسيحية بعد أن أعلنها ديانةً رسميةً ثم صارت بعدها "الديانة الرسمية" لإمبراطوريته الرومانية التي صارت بعدها "مقدَّسة". لعلَّ التبعات اللاهوتية للمجمع كانت إيجابيةً لكن التبعات السياسية الاجتماعية صبَّت في صالح الطغيان السياسي والتدهور.